أضواء على
حملة شريفية
على القصيم
سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م

أ . خالد حمود السعدون

لاحظت أن المراجع التى تحدثت عن هذه الواقعة مرت ـ كدأبها فى أغلب الأحيان ـ بالحدث مرورا سريعا ، فما فصلته ، ولا بينت أهدافه ومراميه ، وما انتهى إليه . فأعطتنا صورة مشوشة تثير من الأسئلة أكثر مما تعطى من الإجابات ـ لذا رأيت أن أقف أمام تلك الواقعة وقفة تزيل ما علق بها من غموض ، على ضوء التفصيلات التى سجلتها الوثائق البريطانية المعاصرة .

ويحسن بنا قبل أن نلج فى صميم الموضوع أن نذكر القارئ الكريم بالأحوال العامة التى كانت سائدة فى منطقة القصيم حينئذ . فنقول : إن القصيم تحول بعد استرداد الأمير عبد العزيز آل سعود للرياض سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م إلى ساحة صراع بين الرياض وحائل تدخلت فيه الدولة العثمانية لصالح الأخيرة . فما نفعتها : ولكن فضحت عجزها . حين مالت كفة الصراع بدءا فى سنة ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م لصالح الرياض . فأصبحت هى المسيطرة . وعاد أكثر أهل القصيم إلى ولائهم لآل سعود .

ولقد كان الوضع كما وصفنا حين شخص الشريف حسين بن على بنظره نحو تلك المنطقة . وكان أول ما فعله أن أرسل فى حوالى شهر جمادى الثانية ١٣٢٨ هـ / يونية ١٩١٠ م للأمير عبد العزيز آل سعود يطالبه . بتقديم رسم سنوي مالي عن منطقة القصيم مقداره تسعمائة جنية استرليني على أن يتم دفعه عن كل السنوات الثلاثين الماضية التى انقطع فيها . وأرسل الشريف من ناحية أخرى إلى أهل القصيم يطلب منهم فك ولائهم للرياض وتحويله اليه . وقد لاحظ القنصل البريطانى فى جدة الذى أورد كل هذه المعلومات أن تلك المطلبات . ما هى الا مقدمة لتحرك حربى أكدته له المعلومات التى وصلت من مكة المكرمة⁽١⁾ .

ولا ندرى إن كان الشريف لم يتلق ردا من الأمير عبد العزيز . أو أنه تلقى ذلك الرد دون أن يصل لنا ما يشير اليه . فكل الذى نعرفه ان حملة يقودها الشريف تحركت من مكة المكرمة . وأنها كانت شمال الخرمة فى العشرين من شعبان سنة ١٣٢٨ هـ⁽٢⁾ . حيث كتب الشريف من هناك رسالة لشيخ الكويت مبارك الصباح هذا نصها :

● بسم الله الرحمن الرحيم ●

« وبعد اهدا[ء] اجل التحايا والتسليمات [كذا] ثم الداعى لتحريرا[ه] تجديد العهد بودادكم والاستخبار عن صحتكم ثم وانا قادمين الى نجد وتحرر هذا من المعلوم⁽٣⁾ والسبب لذالك اولا السياحة والاختبار فى القطعة المذكورة والنظر فى اسباب الشقاوة وتزايد الاختلاف الواقع به لعلنا بعناية الله تعالى وببركة أدعيتكم نتوصل لازالة ما فى ذلك من سفك الدماء وخراب البلاد وذهاب مصالح العباد وجعل الله اعمالنا واياكم خالصة لوجهه ثم والقصد تشدوا لنا ماية رز واربعين حمل دقيق وعشرة احمال قهوة وخمسة احمال سكر على شرط ان يكون وصولها الى شقرا بوجة السرعة⁽٤⁾ . وواصلكم طية تحويل بجدة من اصل الثمن تفيدونا بوصوله مع بيان قيمة المطاليب المذكورة وأكديتها⁽٥⁾ . والاولاد علي وفيصل وزيد يسلمون عليكم السلام الكثير وبطيه كتاب لصاحب مسكت الرجاء تتكرموا بارساله فى أول بريد⁽٦⁾ . والله يحفظك⁽٧⁾ » .

ولابد لنا هنا فى أن نخرج قليلاً على سياق الموضوع لنقول : إن توقع الشريف مساعدة الشيخ مبارك له فى حملته ضد الأمير عبد العزيز يدل على عدم معرفته بواقع الأمور فى شرق الجزيرة العربية : إذ لو كانت له معرفة كافية بذلك لأدرك أن من المستحيل على مبارك أن يقدم بصورة علنية على التخلى عن حليفه الرئيسى فى المنطقة . وذلك هو ما حدث بالفعل : إذ كتب الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت قائلا : إن الشيخ مبارك لم يرد على رسالة الشريف . وليست لديه النية لإمداده بالمؤن(٨) .

ونعود إلى سياق الموضوع فنقول : إن قوة الشريف التى ضمت مائتى خيال وكانت تتكون من خمسين خبرة(٩) . وصلت إلى التخوم الجنوبية للقصيم . فأرسل الشريف من هناك إنذارا للأمير عبد العزيز قال فيه : إن منطقة القصيم تابية للاشراف منذ أيام جدة الأكبر . لذا فإن عليه أن يسمح لابن بسام ولمحمد المهنا بالإقامة فيها . وإلا فإنه سوف يلجأ لاستخدام القوة(١٠) . ولا يتضح لنا مما اقتبسناه إن كان المقصود بإقامة هذين الرجلين . هو مجرد الاقامة العادية . أو الاقامة بصفتهما عاملين للشريف . لادارة منطقة القصيم . وهو الارجح . كما أن الوثيقة البريطانية التى أوردت الخبر لا تعرفنا على شخصية ابن بسام المذكور . إذ أن آل بسام كثيرون كما هو معروف . ولكن ربما كان المقصود هو سليمان البسام . الذى تصفه وثيقة بريطانية أخرى بأنه التاجر البارز المقيم فى مكة . والنصير القوى لابن رشيد والمعارض لابن سعود(١١) .

جاء إنذار الشريف للأمير عبد العزيز أثناء انشغاله بمعالجة فتنة نشبت فى الجنوب . ففرض عليه الموقف العسكرى عدم تشتيت جهده بين جبهتين . فمال إلى ملاينة الشريف فأنفذ له «ناصر بن فرحان برسالة تذكره بفشل محاولة أخذ القصيم عنوة التى قامت بها قبل بضع سنين الدولة العثمانية وابن رشيد ويوسف بن ابراهيم(١٢) . وقد زود الأمير عبد العزيز هذا الرسول بتعليمات تنص على بقائه مع الشريف يومين يتعرف خلالهما على نواياه . فإن وجده ميالا للتفاهم . عامله بالمثل . أما إذا وجده ميالا للعداء . فعليه ان يسلك نفس السلوك ويعود للأمير ليتدبر أمره(١٣) .

ولم ينس الأمير عبد العزيز أن يرسل مع موفده ذاك هدية للشريف . لعلها تسل سخيمة نفسه . تكونت من اثنى عشر فرسا . وطلب إبلاغ الشريف أمله فى أن يتم قبول تلك الهدية . دليلا على عدم وجود مشاعر عدائية بين الطرفين . وحتى لو كانت لدى الشريف مثل تلك المشاعر . فلا يجب ان يرد الأفراس . بل بإمكانه أن يضيفها للقوة التى سيهاجمه بها(١٤) . إنه موقف يدل على البراعة بلا ريب . ان الأمير لجأ إلى تدبير احترازى آخر حين أوفد أخاه سعد بن عبد الرحمن لمقابلة مشايخ قبيلة عتيبه . وكسب ولاءهم : ليضمن وقوفهم بجانبه . إذا اضطر للصدام مع الشريف . وهنا حدث ما لم يكن فى الحسبان . إذ يبدو أن الشريف كان سباقا الى

كسب ود تلك القبيلة ، فما كاد الأمير الشاب يصلهم حتى وجد بانتظاره بعض رجال الشريف الذين شدوا وثاقه على حين غرة ، وصحبوه إلى معسكر الشريف(١٥) .

ويجدر بنا هنك ان نتساءل عن مصير سفارة «ناصر بن فرحان» وهل تم أسر الأمير الشاب أثناء وجود ناصر لدى الشريف ، أو بعد رجوعه ؟ أرجح أن ذلك تم بعد رجوع ناصر . وإن كانت الوثائق التى بين أيدينا لا تشير لذلك صراحة . فقد طغت فيها أخبار أسر الألير الشاب على ما عداها ، حتى أنها لم تشر إلى حدث أخر مهم ؛ وهو الوقت الذى يتحرك فيه الأمير عبد العزيز على رأس قواته لملاقاة الشريف . فليس لدينا ما يشير صراحة إلى توقيت ذلك التحرك . وإن كان سياق الكلام فى تلك الوثائق يشير إلى أن تحرك الأمير عبد العزيز على رأس قواته كان قبل أسر الأمير سعد ؛ إذ يبدو أن الجميع تحركوا سويا . ثم انفصل الأمير سعد على رأس بعض القوات ليكون طليعة للقوة الرئيسية التى قادها الأمير عبد العزيز بتؤدة ، لعل أخبار زحفه تصل إلى الشريف فيتراجع عما انتواه ويكفى الله الطرفين شر القتال .

كانت القوة التى تزحف بقيادة الأمير عبد العزيز كبيرة جدا بالقياس الى قوة الشريف(١٦) . الذي كان مخيما على آبار الوجه فى جنوب الوشم ، حوالى خط العرض ٢٥° شمالا وخط الطول ٤٤,٣٠° شرقا . ورغم هذا الحشد المتبادل ، فقد مال الطرفان فعلا إلى التفاوض والتفاهم ؛ فالأمير عبد العزيز حريص على سلامة اخيه الأسير(١٨) . والشريف تحرج موقفه العسكرى حينما علم البدو الذين كانوا معه أن جيش الأمير أصبح على مسيرة مرحلتين منهم . فرأوا كعادتهم أن أحسن الغنائم هي سلامة الإياب دون المجازفة بأعمارهم . لاسيما وأنه ليست هنالك قضية مشتركة بينهم وبين الشريف . الذى فوجىء ذات صباح بأن أولئك البدو قد تسللوا من معسكره تحت جنح ظلام الليل القائت(١٩) . ومن ناحية اخرى فإن الشريف كان يعلق املا كبيرا على انضمام ابن رشيد لقواته . ولم يدر ان حائلا والرياض كانتا قد توصلتا لاتفاق ودى قبيل تحركه(٢٠) . وهنا يتأكد ما قلناه سابقا من سوء تخطيط تلك الحملة ، وعدم كفاية معلومات الشريف عن الوضع السائد فى المنطقة التى قاد قواته إليها .

لهذا كله بدأ الطرفان المفاوضات . ورغم الوثائق التى بين أيدينا لا تشير إلى تفصيلاتها . ولا عن الطريقة التى تمت بها . إلا أنها تشير إلى أن الشريف أدرك نقطة الضعف فى موقف خصمه ؛ وهى حرصه على الاتفاق بأية وسيلة ضمانا لسلامة أخيه . فاستغل ورقة الضغط هذه بذكاء وأصر على أنه لن يطلق سراح الأمير الأسير الا إذا وقع الأمير عبد العزيز على تعهد بأن يدفع له سنويا ستة آلاف ريال ، باعتبارها تمثل واردات القصيم . فاضطر الأمير لتوقيع ذلك التعهد(٢١) . الذى ما إن تسلمه الشريف حتى أطلق سراح الأمير سعد ورده بكل احترام ومعه هدية تتكون من ست هجن عمانية ممتازة(٢٢) . وقد رد الأمير عبد العزيز على هدية الشريف بهدية مماثلة شملت خيمتين

كبيرتين ، وثلاثة مقاعد طويلة مكسوة بالمخمل وأربعين معطفا وكساوى أخرى ، تقبلها الشريف ثم غادر متوجها إلى مكة المكرمة(٢٣) .

ولم يستسلم الأمير عبد العزيز لهذا الاتفاق القسرى ؛ بعد فى أن اطمأن على سلامة أخيه حتى وجه رسالة للشريف أعلمه فيها أن تعهده المذكور لاغ ولا قيمة له ؛ لأنه وقعه وهو مكره . وفكر الأمير عبد العزيز أيضا فى تقديم شكوى ضد الشريف إلى واليى بغداد والبصرة العثمانيين ، ولكن الشيخ مبارك الصبكح صرفه عن ذلك التفكير ؛ لأن ذينك الواليين ـ فى رأيه ـ لا يملكان سوى رفع تقرير بالأمر الى استانبول ، وقد تفتح هذه الشكوى الباب لتدخلات عثمانية جديدة فى أمور نجد ، وهو باب أوصد منذ زمن ، ولا يعلم إلا الله كيف سيغلق إذا ما فتح ثانية(٢٤) .

وأن لنا أن نتساءل هنا عن موقف الحكومة العثمانية خلال تلك الحادثة وهو موقف لم يكن واضحا حتى للأمير عبد العزيز نفسه(٢٥) . ويمكن القول إنه من غير المعقول أن تتم حادثة من هذا النوع دون علم الحكومة ، كما أنه من غير المتوقع أن يقدم أمير مكة المكرمة التابع للحكومة والحائز على مساندتها على عمل من هذا القبيل دون استئذان حكومته ، أو أطلاعها على أمر . وعلى هذا أرجح ان الأمر تم بعلم الحكومة العثمانية ، إن لم يكن بمباركتها ، ولعل ذلك الخاطر قد طاف بذهن الأمير عبد العزيز ، فضمن رسالته الى الشريف التى نقض فيها التعهد الذى وقعه قوله : بأنه ليس لديه نزاع مس الحكومة العثمانية ، وأن أهل نجد الذين اختاروه حاكما لهم يعترفون بسيادة السلطان عليهم(٢٦) .

ويجدر بنا ان نلقى نظرة على الدوافع التى دفعت الشريف للإقدام على حملته تلك . فإذا استثنينك الفرض بأنها تمت بتوجيه من الحكومة العثمانية ، فإن أول هذه الدوافع هو رغبته فى تحقيق نصر سهل يظهره امام الحكومة العثمانية بأنه الزعيم المنفذ فى كل شبه الجزيرة والذى يستطيع ان يحقق بحملة صغيرة ما عجزت عنه جيوشها وجيوش حليفها ابن رشيد قبل سنوات ، وقد استثمر الورقة التى حصل عليها من الأمير عبد العزيز لكى يصورها انه حقق هذه الغاية بكلفعل . ويبدو انه نجح فى تعميم هذا الانطباع فى الأوساط الرسمية فى استانبول ، حتى أن مراسل صحيفة «التايمس» اللندنية هناك تأثر بذلك ؛ فكتب الى جريدته الخبر التالى الذى نشرته فى عددها الصادر يوم ٦ أكتوبر ١٩١٠ انه «طبقا لأنباء من مكة فقد نتج عن القبض على سعد بن سعود أن كل القبائل العربية فى اقليم نجد قد اعلنت خضوعها للدولة ، بينما اعلن عبد العزيز بن سعود عن استعداده لاطاعة اوامر الحكومة» . ولا يستبعد فى هذا المجال ان تكون بعض العناصر المعارضة للأمير عبد العزيز ، قد اغرت الشريف بكلتحرك فى ذلك الطريق الوعر ، الذى لم يجن من ورائه شئيا كبيرا ، بل العكس هو الذى حدث ؛ فإنه عودته خالى الوفاض قد زادت من مككتة الألير عبد العزيز فيةأعين اهالى المنطقة على حد تعبير الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت(٢٧) .

ومن الطريف الاشارة هنا إلى أنه كان لتلك الحادثة صدى واسع فى المنطقة تناقله الركبان الى الحواضر المهمة ، مع ما يرافق ذلك التناقل عادة من تحريفات انعكست فى تقارير الممثلين البريطانيين فى تلك الحواضر : فقد أورد الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين مثلا ان الأخبار التى وردت لذلك المكان من مكة المكرمة تشير إلى أن الشريف والأمير عبد العزيز توصلا الى اتفاق سلام ينص على ما يلى :

١ ـ تكون لأهالى القصيم حرية اختيار رئيس لهم من بين الشريف والأمير وابن رشيد . فإذا ما وقع اتفاقهم على احد الرجلين الأخيرين . فإن من وقع عليه الاختيار يلتزم بدفع مبلغ ٧٥٠٠ روبية هندية سنويا للشريف .

٢ ـ إذا طلبت الحكومة العثمانية تجنيد أهالى نجد فى الجيش فإن الأمير عبدالعزيز سوف يقدم تأييده الكامل ومساندته لذلك الطلب .

٣ ـ إذا ضايق الأمير عبد العزيز قبيلة عتيبة أو لم يسمح لها بحرية التجارة فى نجد ، فان الشريف سيعاقب المعتدى ، أما اذا سببت قبيلة عتيبة أية اضطرابات فان الشريف سيقوم بمعاقبتها(٢٨)

أما الأنباء التى وصلت لبغداد عن تلك الحادثة ، فتصورها بأن الشريف قام بزيارة للقصيم ، حيث اجتمع هناك بكل من ابن سعود وابن رشيد وحثهما على الاتفاق ، انصرف بيدها الأميران المذكوران ، بينما مكث الشريف بعدهما فى المنطقة بعض الوقت نجح خلالها فى الحصول على ولاء أهل القصيم(٢٩) . ولعل هذا التضارب فى المعلومات الواردة فى الوثائق البريطانية والمتعلقة بحادثة واحدة ، ينبهنا إلى أمرمهم : هو ضرورة الحذر عن! الأخذ من أية وثيقة وعدم اعتبار معلوماتها دقيقة تمام الدقة لمجرد كونها وثيقة رسمية . وانما يتعين تدقيقها ومقارنتها بغيرها من المصادر للوصول إلى قركتن تراجع صحة ما فيها قبل الاستفادة منها ، وبخاصة عند ما تكون معلومات تلك الوثيقة غير مستقاة من مشاهدة مباشرة قام بها كاتب الوثيقة ، أو كان ذا صلة مباشرة بموضوعها .

* * *

• الهوامش •

R/15/5/25, No. 30, Consul Monahan to sir G - lother, dated 11/6/1910 (١)

R/15/5/25, Extract from Kuwait news for week ending 28/9/1910 (٢)

(٣) لا ادرى ان كان هناك موضوع شمال الخرمة اسمه «المعلوم» وإلا فالجملة مضطربة غامضة .

(٤) المعروف ان جدة ميناء لواردات مكة المكرمة ، ولعل سبب عدم حمل الشريف للمواد المطلوبة معه هو رغبته فى التخفيف من الأحمال ، علما بان الكويت كانت حينئذ المنفذ الرئيسى لواردات القصيم وكلعارض .

R/15/5,25, No . 548 - 9 of 1910 P. A. Kuwait to P. R., Brghdad (٧)

R/15/5/25, Extract from kuwait nrws for week ending 28/9/1910 (٨)

(٩) لو افترضنا ان الخبرة تضم عشرين رجلا لكان اجمالى القوة الف رجل ، وهى قوةليست كبيرة .

R/15/5/251, Extract from kuwait news fof week ending in 21/9/1910 (١٠)

R/15/5/25, No. 23, Consul, Jeddah to sir G. Lowther, dated 15/5/1909 (١١)

(١٢) هو التاجر الكويتى المشهور يوسف بن عبد الله الابراهيم الذى ناصب الشيخ مبارك العداء، وتحالف مع ابن رشيد ضده - توفى سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م .

R/15/5/25, Extract from kawait news for week ending in 21/9/1910 (١٣)

R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 12/9/1910 (١٤)
R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 28/9/1910 (١٥)

R/15/25, No. c - 70, p. A., kuwait to P. R., Bushire, dated 6/11/191 (١٦)

R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 28/9/1910 (١٧)
R/15/5/25, No. C - 70, P. A., kuwait to P.R., Bushire, dated 6/11/1910 (١٨)

R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 12/10/1910 (١٩)
R/15/5/25,nExtract of kawait news for week ending in 19/10/1910 (٢٠)

R/15/5/25, No. C - 70, P. A., kuwait to P. R., Bushire, dated 6/11/1910 (٢١)

R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 12/10/1910 (٢٢)
R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 19/10/1910 (٢٣)
R/15/5/25, No. C - 70, P. A., Bushirc, dated 6/11/1910 (٢٤)
R/15/5/25, No. C - 17, P. A., kuwait to P. R., Bushirc, dated 6/11/1910 (٢٥)
R/15/5/25, No - c - 17, P. A., Kuwait to P. R., Bushirc. dated 6/4/1911 (٢٥)

R/15/5/25, No - c - 70, P. A., kuwait to P. R., Bushire, dated 6/11/1910 (٢٦)

R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending 19/10/1910 (٢٧)

R/15/5/25, Extract ofnBahrain news for ending 25/11/1910 (٢٨)
R/15/5/25, No - 1100, P. R., Baghdad to P. A., kuwiat, dated 15/12/1910 (٢٩)